التصوف

التصوف، اسم يطلق على الطرق الموصلة إلى الحق تعالى، يسلكها الصوفي والمتصوفة. فالتصوف يعبّر عن الجانب النظري لطريق الحقيقة، والتنسك (التَدَروُش) يُعنَى بجهته العملية. وأيضاً أُطلق على الجانب النظري للطريقة "علم التصوف" وعلى جهتها العملية "التنسك". ويرى بعض أرباب الحقيقة، أن التصوف هو إماتةُ الله جهةَ الإنسان النفسية والأنانية والسمو به إلى حياتية أخرى بأنواره الذاتية. وبتعبير آخر: إفناءُ الله الإنسانَ بإرادته سبحانه، ودفعه إلى العمل بإرادته الخاصة واختياره الأحدي.[1] ومقاربة أخرى: أن التصوف هو المجاهدة المستمرة والمراقبة الدائمة، لإزالة الإنسان جميعَ أشكال الأخلاق الذميمة عنه وتخلّيه عنها، وإقامته الخصال الحميدة الرفيعة، وتحلّيه بها.

ويعبّر الجنيد البغدادي عن التصوف بـ "الفناء في الله" و"البقاء بالله". ويمكن تلخيص أقوال الشبلي بالبقاء في المعية الإلهية دون الالتفات إلى الأغيار. أما بيان أبي محمد الجريري فيلخص، باتخاذ موقف يقظ تجاه الأخلاق الرذيلة، واقتناص الأخلاق السامية.[2]

---

١) انظر: الرسالة للقشيري ٤٢٩. لما سئل الجنيد عن التصوف قال: "هو أن يميتَك الحقُّ عنك ويحييك به".

٢) انظر: الرسالة للقشيري ٤٢٩. أي: "الدخول في كل خُلق سَنِيّ، والخروج من كل خُلق دَنِيّ".

وهناك من عرّف التصوف بأنه النفوذ إلى روح الأشياء والموجودات، وتحليل الأحداث وفق محور المعرفة الإلهية، وعدّ كل إجراء من إجـــراءات الله منفَـــذاً لمراقبته ورصده تعالى، بمشاهدة داخلية تفوق التصورات وتسمو علـــى الكـــم والكيف، وإدامة العمر في محاولة تعقّب معاينته ومشاهدته ســـبحانه، والعـــيش بخشوع وانكسار وتقلّب دائم حيث يرانا بأحوالنا كلها.

ويمكن أن نخلُص من هذه التعاريف المتباينة إلى نتيجة جامعة هـــي: أن التصوف هو الانسلاخ من الـــصفات البـــشرية - في معيـــار- والتـــدثّر بالأوصاف المَلَكية والأخلاق الإلهية، والعيش في مدار معرفة الله ومحبته تعالى والتذوق الروحاني.

إن أساس التصوف هو الرعاية لآداب الشريعة ظاهراً، والوقوف علـــى تلك الآداب باطناً، فالسالك الذي يُحسن استعمال هذين الجناحين يرى من الباطن ما في الظاهر من الأحكام، ويشعر ويعيش في الظاهر بالأحكام الـــتي في الباطن. وبفضل هذه المشاهدة والشعور يسير دوماً بأدب نحو الهـــدف، ويجول قريباً منه ويحوم حوله.

والتصوف طريق مفتوح إلى المعرفة الربانية وعمل دائب جاد، لا محل فيـــه للهزل واللامبالاة واللهو والعبث. وكيف يكون ذلك، فأساســـه يـــستند إلى تشرب شَهْد المعرفة الإلهية وانتقاشها في القلب، كالنحل غادياً ورائحاً بين الخلية والزهرة.. وتطهير القلب من الأغيار.. وفطام النفس عن ميولها الجبلّية.. وإخماد الصفات البشرية بالانغلاق التام تجاه الرغبات البدنية والجسمانية.. والبقاء دوماً متفتحاً أمام الروحانيات وإمضاء عمره على خطى سيد الأنام ﷺ.. والتخلـــي عن مراداته لأجل مرادات الحق سبحانه.. واستشعاره بحضوره تعالى لمعرفته أن الانتساب إلى الحق سبحانه أعظم مرتبة.

وينبغي أن نقف على أصل التصوف وأساسه وموضوعه وفائدته وأركانه:

أصل التصوف: هو الاعتصام بأسس الدين بقوة، ومراعاة أوامره ونواهيه بدقة. ومجانبة حظوظ النفس قدر المستطاع بملازمة الجوع واليقظة.

موضوع التصوف: رفع الإنسان إلى مستوى الحياة القلبية والروحية، وتصفية القلب، وتوجيه اللطائف إلى مرجعها الأصلي.

وفائدة التصوف: تحفيز الإنسان لتنمية جوانبه المَلَكية.. واستشعار الإيمان الإجمالي والبدائي كرّة أخرى كشفاً وذوقاً والعيش به.

أساس التصوف: تعميق شعور العبودية السطحي وترسيخه بالمواظبة على العبادة والطاعة وجعله جانباً مهماً لطبيعة الإنسان، وبلوغ الروحانية – التي تُعدّ فطرة ثانية للإنسان– والانتباه إلى وجهَي الدنيا المتوجهَين إلى العقبى وإلى الأسماء الإلهية الحسنى، مع الانغلاق التام تجاه وجه الدنيا الفاني المتوجه ذاتها، وإلى أهوائنا.

أما **أركان التصوف** فيمكن درجها بالآتي:

١. بلوغ التوحيد الحقيقي بطرق نظرية وعملية.

٢. قراءة أوامر حضرة[1] القدرة والإرادة الإلهيتين ومعاينتهما بجنب الاستماع إلى حضرة الكلام الإلهي وفهمه.

---

١) عندما سئل الأستاذ المؤلف عن سبب استعماله هذه العبارات التي تنمّ عن التوقير والتبجيل. أجاب: نعم، لقد استعملت مثل هذه العبارات في المواقع التي تتعلق بالذات المقدسة، فقلت حضرة العلم وحضرة القدرة لأنني أراها تسمو على الصفات، إذ ينبغي الدقة المتناهية فيما يخص ربنا الجليل. فإننا لا نتكلم عن أمر عادي، نحن نتكلم عن ذات مقدسة جليلة، لذا تتملكني منتهى الرهبة والخشية أثناء كلامي أو كتابتي عنها، فأسعى للعثور على الكلمات المناسبة والتعابير اللائقة. (قرق تستي – الخابية المنفطرة للاستاذ محمد فتح الله گولن "باللغة التركية" ٤٢٣).

٣. الامتلاء بمحبة الحق سبحانه، والنظر لأجله إلى الموجودات أنها "مهد الأخوة" والقيام بحسن المعاشرة مع الناس قاطبة، بل مع كل شيء.

٤. العمل بروح الإيثار في كل وقت وحين، بتفضيل الآخرين قدر المستطاع على نفسه.

٥. تقديم المراد الإلهي على مراده هو، والسعي لإمضاء العمر صُعُداً إلى ذرى "الفناء في الله" و"البقاء بالله".

٦. الانفتاح على العشق والوجد والجذب والانجذاب.

٧. استشفاف ما في الصدور من سيماء الوجوه. وقراءة الأسرار الإلهية على وجه الأحداث.

٨. تنظيم رحلات إلى مواضع تذكّر بالأخرويات، بنية السفر للكسب المعنوي وقصد الهجرة.

٩. الاكتفاء بالأذواق واللذائذ ضمن الدائرة المشروعة، والعزم على عدم الإقدام خطوة إلى الدائرة غير المشروعة.

١٠. المجاهدة المتواصلة والمناضلة الدائمة مع طول الأمل الذي ينشؤه توهّم الأبدية.

١١. عدم النسيان -ولو للحظة واحدة- أن لا نجاة إلاّ بطريق اليقين والإخلاص والرضا الإلهي، ولو كان العمل باسم خدمة الدين وفي سبيل إبلاغ الإنسانية قاطبة إلى الحق سبحانه.

وفضلا عما سبق يمكن أن نضيف الآتي: التزود بالعلوم الظاهرة والباطنة، والاحتماء بريادة إنسان كامل وإرشاده.. هاتان الخاصتان تحوزان أهمية لدى النقشبنديين.

وإذ نذكر التصوف، ونفكر بالتصوف، ونكتب حول التصوف، علينا ألاّ ننسى المسائل التي ندرجها أدناه وهي بمثابة إشارات بلورية لَمّاعة للسير والسلوك الروحاني، وتتضمن المعنى الإجمالي لروح الدروشة (التنسك)، وتعدّ أساساً لكتب الأخلاق والأدب والزهد، بل عُدّت نقطة التقاء القلوب – بمعنى من المعاني– بالحقيقة الأحمدية.[1]

وفي مقدمة هذه المسائل وأُولاها "اليقظة" التي تشكل أساساً لفهم الحديث الشريف: (إنَّ عَيْنَيَّ تَنَامَانِ وَلا يَنَامُ قَلْبِي)،[2] و (النَّاسُ نِيَامٌ مَتَى مَاتُوا استَيْقَظُوا).[3] وتأتي بعد اليقظة وتعقبها التوبة، الإنابة، المحاسبة، التفكر، الفرار، الاعتصام، الخلوة، العزلة، الحال، القلب، الحزن، الخوف، الرجاء، الخشوع، الزهد، التقوى، الورع، العبادة، العبودية، المراقبة، الإخلاص، الاستقامة، التوكل، التسليم، التفويض، الثقة، الخلق، التواضع، الفتوة، الصدق، الحياء، الشكر، الصبر، الرضا، الانبساط، القصد، العزم، الإرادة، المريد، المراد، اليقين، الذكر، الإحسان، البصيرة، الفراسة، السكينة، الطمأنينة، القرب، البعد، المعرفة، المحبة، العشق، الشوق، الاشتياق، الجذبة، الانجذاب، الدهشة، الحيرة، القبض، البسط، الفقر، الغنى، الرياضة، التبدل، الحرية، الاحترام، العلم، الحكمة، الهمة، الغيرة، الولاية، السير، الغربة، الاستغراق، الغيب، القلق، الوقت، الصفاء، السرور، التلوين، التمكين، المكاشفة، المشاهدة، التجلي، الحياة، السكر، الصحو، الفصل، الوصل،

---

١) نذكّر القارئ الكريم أن أمثال هذه العبارات والمصطلحات لم نمسها بالتعليق او التوضيح حيث سيرد شرحها بالتفصيل في ثنايا هذا الجزء من الكتاب أو الأجزاء التي تليه. (المترجم)

٢) البخاري، التهجد ١٦؛ مسلم، صلاة المسافرين ١٢٥.

٣) ينسب هذا الكلام إلى علي بن أبي طالب ﷺ وسفيان الثوري. انظر لذلك: المصنوع لعلي القاري ١٩٩/١؛ كشف الخفاء للعجلوني ٤١٤/٢، ٥٢٥؛ حلية الأولياء لأبي نعيم ٥٢/٧.

الفناء، البقاء، التحقيق، التلبيس، الوجود، التجريد، التفريد، الجمع، جمع الجمع، التوحيد.

ونأمل أن يُوضَّح شيء من هذه المعاني في هذا الكتيب ولو بصورة مجملة.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

التصوف من حيث المنشأ

لم تكن الأحكام الشرعية تدوَّن في العهود الأولى في نظر تاريخ العلوم الإسلامية، فالكثيرون كانوا يحفظون أقسام هذه الأحكام عن ظهر قلب، فتظل مطبوعة في أذهانهم، كالاعتقاد والعبادة والمعاملة، حيث كانت تتكرر كثيراً وتُعزّز بالمزاولة والتطبيق العملي. فمن هذه الناحية ما كان في جمع الأحكام الشرعية وتصنيفها أية صعوبة تُذكر؛ لأنه أشبه ما يكون بصياغة ما هو محفوظ حياً في أذهاننا ثم تسطيره على الأوراق. ومن ناحية أخرى فإن فروع العلوم المذكورة لأنها من المسائل الحياتية التي لابد أن ينشغل بها كل مسلم فقد تناول العلماء مقدماً تلك الحقائق المحفوظة في أذهانهم وصدورهم ودوّنوا رسائل وكتباً تتعلق بكل باب من تلك الأبواب. فاشتغل الفقهاء بتصنيف كتب الفقه، والمحدّثون بتدوين السنة وحفظها، وعلماء الكلام في ترصين مسائل العقيدة، والمفسرون في تأليف التفاسير وعلوم القرآن. وبذل كل منهم في ساحته جهداً فاق الآفاق لإبراز حقائق الإسلام الرفيعة، من دون أن يدَعوا مجالاً للالتباس.

وفي هذه الأثناء ركز الصوفيون أيضاً، الذين يولون اهتماماً أكثر بالجانب الروحي للحقيقة الأحمدية.. ركزوا – مستندين إلى المصادر نفسها– على الحقائق المرتبطة بالتصوف، كذات الإنسان، وأساس الوجود وما وراءه، وماهية الإنسان والكائنات وحقيقتهما، وأمثالها من المواضيع، ساعين بإصرار

ليوجهوا الأنظار إلى ما وراء الأشياء. فأضافوا رياضاتهم الذاتية وحياتهم الروحية، وتصفيتهم القلوب، وتزكيتهم النفوس، إلى تفسير المفسرين وروايات المحدثين واجتهادات المجتهدين واستنباطاتهم.. وبإيجاز؛ طوروا مدارس ومسالك صوفية متعددة بإدراك الدين كلاً لا يتجزأ، علاوة على عيشهم به وتذوقهم له وفهمهم إياه.. وهكذا كسبت حياة الإسلام الروحية ماهيةً علمية، تلك هي الحياة المستندة إلى أسس عملية بحتة متعلقة بأحوال القلب، كزهد الزهاد، وعبادة العبّاد، ودقة الإحساس الديني عند أرباب الورع، ورهافة الحس لدى المخلصين، وعشق المحبين وشوقهم، ورؤية الفقراء لعجزهم وفقرهم إلى الله. فظهرت على صورة "علم التصوف" بما يخصه من منهج ومسلك ومشرب وموضوع وقواعد واصطلاحات. فـ"علم التصوف" في أساسه خلاصة الحقيقة الأحمدية وعصارتها بلا شك، مع ما يبدو في مشاربه المختلفة من تباين واختلاف في الوقت الحاضر.

ولكنها حقيقة واقعة، أنه في بعض العهود ظن قسم من أهل التصوف بأن الشريعة الغراء –التي هي حقيقة واحدة لها وجهان– تختلف أحكامُها عن روحها (الباطنة)، كالمراقبة والرياضة والمجاهدة. فأخذ كلٌّ منهما موقف العداء للآخر، بتوهم أحدهما متشبثاً بظاهر الشريعة والآخر بباطنها. وفي الحقيقة أن ما أَوْجد –إلى حد ما– ظهور هذا الاختلاف هو أن الفقهاء وأهل الفتوى مثّلوا جانب الشريعة النظري، بينما مثّل الصوفية جانبها الباطني. والحال أن هذا الاختلاف يمكن النظر إليه من زاوية: أن كل جهة تُقدّم المسلك الذي اعتادت عليه وتميل إليه.

ولقد راجع الفقهاء والمحدّثون والمفسرون القرآن والسنة في ضوء أصول وقواعد تستند من حيث الأساس إلى عهد الرسالة الزاهر. وصنّفوا في ذلك آثاراً

جليلة كلٌّ في ميدانه. كما أن الصوفيين بمرجعية القرآن والسنة أيضاً، أظهروا اجتهاداتهم في مسائل استخرجوها من هذين المصدرين الأساسين مما يتعلق بالرياضة والمجاهدة والمراقبة والحال والمقام، ودوّنوا معها حياتهم الروحية الخاصة بهم، وعشقهم وشوقهم واشتياقهم ووجدهم وجذباتهم وانجذابهم، وسعوا لتوجيه من يجدونهم من المتشبثين بالظاهر إلى هذه النواحي.

وفي الحقيقة إن قصد كلا الطرفين هو الوصول إلى الله بمراعاة أوامره ونواهيه، ولكن لعدم تأصيل ميزان يوزَن به طريق الوصول أحياناً وفق مقاييس شرعية أدى إلى الإفراط والتفريط؛ وسبّب ما يبدو لنا من اختلافات في الوقت الحاضر. والحال لا سبب للاختلاف في المنشأ والأساس. وكما أن تدوين أقسام مختلفة من الدين بشكل مستقل والامتثال بها لا يعني اختلافاً، كذلك ليس اختلافاً قط اهتمام علم الفقه بأحكام العبادة والمعاملات، أي تنظيم حركات الإنسان الفكرية والعملية وتنسيقها، وكذا جهود التصوف لرفع حياة الإنسان إلى مستوى القلب والروح بسلوك تربية الروح وتصفية القلب وتزكية النفس. فلا اختلاف ولا افتراق، بل قد تعهّد كلٌّ من الجانبين بالحفاظ على ناحية مهمة من الشريعة، فكلٌّ من تلك النواحي بمثابة كلية من الجامعة، التي تمثل الكل، والتي يتوقف تكاملها على تكامل تلك الكليات. حيث إن إحداها تعلّم كيف يتعبد الإنسان وكيف يتطهر للعبادة، وكيف يقيم الصلاة وكيف يصوم وكيف يزكّى، وعلى أي أساس يستند في معاملاته.. بينما الآخر -فضلاً عن هذا- يؤكّد وباهتمام بالغ على علاقة جميع العبادات والطاعات والمعاملات بالقلب والروح، فيبحث عن طرق رقي الإنسان "الصورة" إلى الإنسان "السيرة" أي المعنى. ويوصي بالطرق المؤدية إلى الإنسان الكامل. وعلى هذا الأساس فلا يمكن إهمال أيٍّ من الجهتين.

ولكن على الرغم من أن بعض الناقصين قد جاوزوا الحد فأطلقوا على المشتغلين بالفقه والسنة اسم "أرباب الظاهر" و"علماء الرسوم"، إلاَّ أن الكاملين من الصوفية قد اتخذوا دائماً قواعد الشريعة الأساسية مصدراً لهم. فما طرحوه من أفكار وآراء استنبطوها من أصول ومناهج موافقة للكتاب والسنة، ونسجوها نسجاً دقيقاً على لحمة الشريعة الغراء وسداها. فكتاب "الوصايا" و"الرعاية" للمحاسبي و"التعرف لمذهب أهل التصوف" للكلاباذي و"اللُّمع" للطوسي و"قوت القلوب" لأبي طالب المكي و"الرسالة" للقشيري... ما هي إلاّ بعض درر هذا الصدف. ومثلما توجد بين هذه الدرر مؤلفات تنسج على منوال واحد كمحاسبة النفس وتزكيتها، هناك أيضاً مصنفات ضخمة ضمت موضوعات متعددة بين دفتيها.

وأخيراً، وبعد كل هذه الأسفار النفيسة العظيمة، أتى حجة الإسلام الإمام الغزالي وألّف كتابه القيّم "إحياء علوم الدين" بعد أن نقّح طرق التصوف بجميع آدابه وأركانه واصطلاحاته، مقراً بما أقره المشايخ عامة ومنتقداً لما يستوجب النقد.. فآلف مرة أخرى بين هذين التيارين المباركين اللذين يبدوان كأنهما مختلفان ووفّق بينهما بانسجام تام، بحيث إن كثيراً من الصوفيين الذين أتوا من بعده وجدوا علمهم لوناً من ألوان العلوم الشرعية، وبُعداً من أبعادها، فانتعشت الوحدة والتعاون في كل مكان، حتى أنهم انسجموا وائتلفوا مع الذين كانوا يطلقون عليهم –إلى ذلك اليوم– اسم "علماء الرسوم" استخفافاً بهم. وخاصة لدى حملهم إلى المدرسة الفقهية توضيحات متميزة في علم التصوف، أمثال الحقائق الوجدانية والذوقية الكثيرة، كعلم الحال وعلم الخاطر وعلم اليقين وعلم الإخلاص وعلم الأخلاق. فوجدوا نقاط التقاء مشتركة كثيرة جداً توصلهم إلى الاتفاق والوفاق، سواءً في أرباب التصوف أو علماء الظاهر.

ولما كان التصوف طريقاً للعبادة جُلّ اهتمامه الباطن، ويتناول الجانب الروحي للأحكام الشرعية ومدى تأثيرها على القلب، والأعماق التي تشف في الوجدان، فهو بالنسبة للمسالك الأخرى أكثر غوراً ولدنّية وأوسع مدى وأصعب فهماً، إلاّ أنه من حيث الهدف والمنطلق نابع من الكتاب والسنة لا ينافي أي طريق إسلامي آخر. بل هو كالعلوم الشرعية الأخرى، يؤكد على روح العلم والمعرفة واليقين والإخلاص والإحسان وما شابهها من الحقائق، مستنداً إلى الكتاب والسنة والاجتهادات الخالصة للسلف الصالح.

إن تعريف التصوف بعناوين مختلفة كعلم الباطن وعلم الأسرار وعلم الأحوال والمقامات وعلم السلوك وعلم الطريقة، لا يعني افتراقه عن العلوم الشرعية، إذ إن هذه الأسماء والعناوين نابعة من تذوق أمزجة متباينة ومشارب مختلفة للحياة القائمة على الشريعة طوال عصور مديدة وإدراكها بصور متنوعة. لذا يعدّ انحرافاً ومجانبة للصواب إظهار وجهات نظر الصوفية أنها مختلفة في الأساس عن أفكار خدام الشريعة واستنباطاتهم. ورغم أن هناك في كل عصر من العصور متعصبين من الصوفية ومتشبثين بظاهر الأحكام الشرعية من الفقهاء والمحدّثين والمفسرين إلاّ أن أرباب الصراط المستقيم هم الأكثرية دائماً بالنسبة لهؤلاء الذين أفرطوا وفرَّطوا. وبناء على هذا فمن الخطأ قطعاً تناول المسألة وكأن هناك منافاة حقيقية بين أهل الحق من كلا الجانبين، نظراً إلى أقوال ومفاهيم غير لائقة لقسم من الفقهاء على المتصوفة أو لقسم من المتصوفة على الفقهاء، وذلك لأن عدد الذين يثيرون مثل هذا النزاع ويشاركون فيه يُعدّون قطرة من بحر بالنسبة لمن يسلكون طريق التسامح والعفو والصفح. وفي الحقيقة إن هذا أمر طبيعي جداً، لأن مرجع كلا الطرفين واحد، فمثلما يرجع الفقهاء إلى الكتاب

والسنة في الأحكام الشرعية يستند الصوفيون كذلك إلى المرجعين نفسيهما.

هذا وإن الأسس التي يؤكدها الصوفيون بإصرار لا تختلف كثيراً عما هي في مسلك الفقه والفقهاء. فالجهتان عامة تؤكدان معاً على العمل الصالح والمعاملة الصادقة. فضلا عن أن الصوفيين يتكلمون عن موضوعات كالأعمال الحسنة وتهذيب الأخلاق وتزكية النفس، إذ بالأعمال الحسنة يتنبه الوجدان إلى المعرفة الإلهية.. فيتوجه الإنسان إلى طريق الإخلاص والرضا الإلهي، فيترقى إلى مستوى يمكنه أن يؤدي كل مسألة شرعية بانتشاء تعبدي عميق، وذلك بحصول قلب آخر أعمقَ من القلب، وعرفان آخر وراء العرفان، ولغة أخرى أعرق من اللغة.

أجل، إن التخلق بالأخلاق الإلهية (اللاهوتية) تتحقق بالأعمال الصالحة والأخلاق الحميدة.. وتتكشف الحجب وتنزاح الأستار بطريق مجاهدة النفس والخلوة والذكر والمراقبة.. فيغدو الإيمان الإجمالي مرة أخرى -بالإطلاع على ما وراء الوجود- معززاً بالذوق والكشف كيقين شهودي.

الصوفي

الصوفي تعبير يطلق على أهل التصوف، وأعتقد أن الاختلاف في استعمال هذه الكلمة ناشئ من أصل الكلمة نفسها، فمن قائل: إن أصل الكلمة من "صوف" و"صوفس" و"صفاء" و"صفوة"، كناية عن روح التدين فأطلقوا كلمة "صوفي"؛ ومن مدّع أنها نابعة من "سوفان" و"سوفانة" و"صفّة".

واشتهرت لدى أرباب التصوف أن:

الصوفي: يعني "السالك إلى الحق" الذي بلغ حدّ الصفاء من حيث الحياة القلبية وعالمه الداخلي.

الصوفي: يعني "رجل الحق" الذي لا ادعّاء له، تفضّل الحقُّ سبحانه باختياره وانتقائه لنفسه، وصفّاه من كدر النفس فصافاه.

الصوفي: يعني سالك طريق الحقيقة الأحمدية، يلبس ثياب الصوف الذي هو مظهر المحوية وآية التواضع وسكينة القلب وارتياح الضمير، محب للمحبة، لا يجافيها ولا يجافى أهلها، لا يبالي بوجه الدنيا المتوجه إليها ولا بوجهها المتوجه إلى أهوائنا. فلبس الصوفيين للصوف، وإضافته إليهم، لكونه ظاهر حالاتهم وأطوارهم، ولأن لبس الصوف دأب الأنبياء وزي تابعيهم

وزي الذين وقفوا أنفسهم للعبادة.[1] فلئن كان الصوف لبس الأنبياء وحواريهم حقاً، فكلمة "الصوفي" إذن مشتقة من "الصوف".

الصوفي: هو الفارس المقدام لطريق السمو إلى قمم الإنسانية الحقة، قد تبرأ من أوضار النفس، وأدرك فطرته الذاتية، وتصفّى من الكدورات البشرية، حتى غدا لاهوتياً زكيّ النفس سليم القلب.

الصوفي: هو الاسم المثالي لرجل القلب، الذي نذر حياته وبذل جهده للتشبه بأهل الصُفّة ليحظى بتحقيق هذا الاسم الجليل في نفسه.

ومن قائل: إن كلمة "الصوفي" مشتقة من "الصفّ". فمع ملاحظة المخالفة لقواعد اللغة في الاشتقاق، فإن بقاءهم المستمر في عبودية خاشعة قانتة أمام الحق سبحانه يدعو إلى التأمل في إطلاق هذا الاسم رغم أن أصل الكلمة تخالفه. ذلك لأن علوَّ همتهم وتوجّهَ قلوبهم إلى الله باستمرار، يبين أنهم أهل لهذا الموقع دوماً، رغم الخطأ في الاشتقاق.

وادّعى البعض أن كلمة "الصوفي" آتية من "صوفس" باللغة اليونانية أو من "سوفيا" التي تعني "الحكمة" باللغة الإغريقية. واعتقدُ أن هذه التسمية شيء اختلقه الأجانب، على الرغم من أن أكثر الصوفيين من أرباب الحكمة.

إن أول من لُقّب بـ"الصوفي" في التاريخ الإسلامي هو الزاهد الكبير أبو هاشم الكوفي، والذي توفي في سنة ١٥٠ هجرية،[2] لذا يصح أن نقول إن

---

١) انظر مثلا: البخاري، اللباس ١١؛ مسلم، الإيمان ٢٦٨-٢٦٩، الطهارة ٧٩؛ الترمذي، اللباس ١٠؛ المستدرك للحاكم ١٠٣/٢٠، ٦٥٥، ٤٥٥/٣، ٤٥٩.

٢) أبجد العلوم للقنوجي ١٥٤/٢.

كلمة "الصوفي" ظهرت في العصر الثاني للهجرة قبل المائتين من الهجرة. وهذا يعني أن استعمال كلمة الصوفي بهذا المعنى هو بعد عهد ساداتنا الصحابة الكرام وتابعيهم رضوان الله عليهم أجمعين.

والتصوف الذي عرفناه منهجاً بالزاهد أبي هاشم، من حيث أول ظهوره مسلكٌ لذوي القلوب والأرواح، يسير وفق البساطة والتواضع الذي كانت عليه حياة رسولنا ﷺ والصحابة الكرام، ويأخذ موقفاً حازماً تجاه الدنيا المتوجهة إلى نفسها، مع الارتباط الوثيق بالرقائق وحوادث ما بعد الموت. وعلى هذا ظل "التصوف" منقاداً لمقتضى الحياة الروحانية.

وغاية التصوف من حيث المنطلق، هي ربط القلب بالحق سبحانه، وكيّ الصدر بنار العشق والمحبة. وقد ترنّم الصوفيون الحقيقيون على طول التاريخ بـ "حُسن الخلق" و"الأدب" واتبعوا سبيل الأنبياء عليهم السلام. إلاّ أن في بعض العهود ظهرت انحرافات وزلاّت قد لا يخلو منها مسلك. ولكن ليس من الإنصاف حصر النظر في تلك الانحرافات، وذم هذا المسلك الذي هو مسلك ذوي القلوب الصافية.

يقول الإمام القشيري عند ذكره الصوفيين الذين سلكوا به في الحياة الروحية باختصار: "إن المسلمين بعد رسول الله ﷺ، لم يَتَسَمَّ أفاضلهم في عصرهم بتسمية سوى صحبة رسول الله ﷺ، إذ لا فضيلة فوقها، فقيل لهم الصحابة. (هذه الحظوة لا يشاركهم فيها أحد من العصور الأخرى). ولما أدرك العصر الثاني سُمّي مَن صحب الصحابة التابعين، ورأوا ذلك أشرف سِمَة. ثم قيل لمن بعدهم: أتباع التابعين".[1] وحاذى أفول هذه الزمر الثلاث

---

١) الرسالة للقشيري ٣٦.

المنورة، والفتن التي وقعت في تلك الفترة، قيام الفقهاء في جهة الفقه، والمحدثين في جهة الحديث، والمتكلمين المحققين في جهة العقائد، بمهمات جليلة، كما حقق الصوفيون تجديدات قيمة في جهة الإسلام الروحية.

الصوفيون في نمط حياتهم في غاية الاستقامة ومنتهى البساطة، مبرّأون من كل انحراف وفساد، أبعد الناس عن الأذواق البدنية والسفاهات الجسمانية، وقفوا أنفسهم ليمضوا حياتهم في جو التسامي للتنسك والزهد والفقر، رزينون وعازمون على التشبه بالرسول الكريم ﷺ وعظماء الإسلام الأماجد. لذا لا يمكن أن يُعدّوا بأوصافهم العالية هذه استمراراً للفلاسفة والحكماء القدامى أو ذوي علاقة بالتنسك النصراني، ولا باليوغا، ولا أنهم ضلع من الفقر الهندي، ولا يماثلون الهازلين ممن لا يعلمون مخافة الله ومهابته في أيامنا الحاضرة.

وفي الحقيقة فقد عُدّ التصوف من حيث مبدأ ظهوره ومن حيث ممثلوه، أنه: علم حقيقة القلب، علم ما وراء الأشياء، علم الأسرار الكامنة في خبايا الوجود. والصوفي هو تلميذ هذا العلم، وفارس ميدانه لبلوغ نهاية هذا الطريق، يسير طوال عمره نحو الأفق المثالي لكل إنسان، ألا وهو الإنسان الكامل. نعم إنه سفر لا نهائي، بقصد الوصول إلى اللامتناهي، وسير متواصل بعزم لا ينثني، من دون ترقّب عِوَض قط. هذا هو التصوف الحقيقي، والصوفي هو البطل العظيم والممثل المحظوظ لهذا المضمون.

وإذا ما نظرنا إلى المسألة من هذه الزاوية يتوضح أمامنا: أن الصوفي لا علاقة له بالفلاسفة والروحانيين النصارى واليوغا قطعاً، كما أن التصوف لا علاقة له بالفلسفة ولا بالروحانية النصرانية ولا باليوغا من قريب ولا من

بعيد. نعم، إن فلاسفة اليونان والهند قد ساروا حقاً في طريق تصفية النفس قبل ظهور الإسلام وقاموا بما يشبه عمل الصوفيين من المجاهدة، ولكن الطريقين مختلفان اختلافاً كلياً من حيث الأصل والأساس. ذلك لأن الصوفيين يحققون التصفية بالتمسك بأسس الذكر والعبادة والطاعة ومحاسبة النفس والتواضع والمحوية، ومن ثم يسعون للمحافظة على هذا الخط إلى نهاية العمر. بينما تصفية الفلاسفة، إن كانت تسمى تصفية، فهي تصفية اعتباطية، ليس فيها عبادة ولا طاعة ولا مراقبة نفس ولا تواضع ولا إنكار الذات، بل فيها دوماً الغفلة وتضخيم الأنانية إلى حدّ الوقاحة والطيش.

ينقسم الصوفيون إلى مجموعتين رئيسيتين:

الأولى: المنطلقون في مدار العلم بحثاً عن الوصال بأجنحة المعرفة.

والأخرى: السالكون لتحري الذوق والوجد والكشف فحسب.

فالمجموعة الأولى: وهم يحلّقون في الذرى بـ"لا حول ولا قوة إلاّ بالله" فيقضون حياتهم بأجنحة العلم والمعرفة في سفر لا نهاية له، في آفاق "السير إلى الله" و"السير في الله" و"السير عن الله".. فكل ما يشاهدونه من تبدل وتغيّر وتكوّن في الوجود، يقدِّم لهم مئات من الرسائل من حضرة القدرة والإرادة الإلهيتين، وكل حادثة تهمس لهم بنغمات مختلفة بألسنة متباينة.

أما المجموعة الثانية: فهم الباحثون عن الكشف والكرامة والذوق والوجد والتواجد، لذا يمكن أن يعيشوا "البُعد" في إقليم "القُرب" لذهولهم أحياناً عن الهدف، رغم أنهم جادّون في سيرهم وسلوكهم وزهدهم.

فالطريق الأول: هو طريق أصحاب الولاية الكبرى السائرين في ظل ريادة القرآن الكريم.

والطريق الثاني: تتقدم فيه أحياناً الرغبات والمشاعر والترقّبات، رغم أن مداره في الأساس القرآن الكريم والسنة النبوية، لذا فهو طريق أقل أمناً من الأول.

وفضلا عن هذا فإن الصوفية يقسّمون الناس فيما بينهم إلى ثلاثة أقسام:

الصنف الأول: ويطلقون عليهم اسم "الكاملون والواصلون". وهؤلاء ينقسمون فيما بينهم إلى قسمين أيضاً:

الأول: السادة الأنبياء العظام والرسل الكرام عليهم السلام.

والآخر: الكُمّلون الذين وصلوا إلى الحق سبحانه باتّباعهم وانقيادهم لأولئك العظام. فهؤلاء يمثّلون حقاً "الإنسان الكامل" من حيث سماء استعداداتهم. ولكن رغم أن بعضهم واصل وكامل في نفسه قد لا يكون مرشداً لغيره. بل قد لا يقدر بعض الواصلين منهم بعد أن حظي بالوصال على النجاة من أمواج بحر الجمع والحيرة. فيبقى هناك إلى الأبد مستهلكاً مشاعره وأفكاره. لذا تنقطع علاقته كلياً عن عالم الناسوت (الطبائع البشرية) ولا يقدر على الإرشاد.

الصنف الثاني: ويطلق عليهم اسم "السالك" وهؤلاء أيضاً ينقسمون إلى قسمين:

القسم الأول: يطلبون الله سبحانه وحده دون أن يفكروا في الدنيا ولا في الآخرة.

أما القسم الثاني: فيطلبون الدنيا -ضمن الدائرة المشروعة- مع طلبهم للآخرة والجنة، فهؤلاء هم الزهّاد والعبّاد والعاجزون والفقراء إلى الله.

والصنف الثالث: هم الذين يحصرون نظرهم في الدنيا، ويطلق عليهم الصوفية اسم "المقيمين" فهؤلاء هم الأشرار والأشقياء من أصحاب الشمال، لا يبصرون ولا يسمعون ولا يفقهون شيئا.

ومن قائل كذلك للأول من هذه الأصناف الثلاثة أنهم "المقرّبون" والثاني "أصحاب اليمين" والثالث "أصحاب الشمال".

التوبة، الإنابة، الأوبة

التوبة التي سنتعرف عليها مع شروح بسيطة هي: التوجّه إلى الله تعالى بلمّ الشعث مجدداً، مع الاعتراف بالأخطاء، وتجرّع غصص الندم، والعزم على تلافي ما فات. هذه التوبة لدى أهل الحقيقة هي معاودة بذل الجهد لبلوغ الموافقات والمطابقات في ضوء أوامر الله ونواهيه سبحانه وتعالى، نجاةً من مخالفات وقعت تجاه الذات الإلهية؛ في الشعور، في التفكير، في التصور، في السلوك. وليست التوبة ترك ما يعافه الوجدان والشعور بالتقزز منه فحسب، بل هي الرجوع إلى الله سبحانه عمّا لا يحبه ولا يرضاه تعالى حتى لو كان ذلك الشيء جميلاً ونافعاً بظاهر العقل.

وكذا التوبة تستعمل بإضافة كلمة "نصوح" إليها، فتصبح "توبة نصوحاً". بمعنى: أنها أخلص توبة، وأصفاها، وأنها صادرة من أعماق القلب. وبمعنى آخر: أنها رأب الصدع، ورتق الفتق، وإصلاح الفاسد دون ترك ثلمة مهما كانت. فإذا أخذنا ما ذُكر أعلاه معاً بنظر الاعتبار فالتوبة النصوح تعني: أن الفرد يتوب باسمه، وبحسب مستواه، ومن أعماق قلبه خالصاً جاداً، بحُسن نية وخلوص قلب وبقصد الخير.. والتائب بحُسن امتثاله هذا يكون كالناصح للآخرين. والقرآن الكريم عندما يذكر التوبة الحقيقية يشير إلى هذه التوبة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ (التحريم: ٨).

وقد تناول الباحثون التوبة في ثلاثة أقسام باعتبار التائبين وأوضاعهم:

أ . توبة عوام الناس، وهم المحجوبون عن الحقائق: هي الشعور بغموم مخالفة أمر الحق سبحانه وأساها في القلب. فيدرك المرء إثمه بسَرَيان هذا الشعور في وجدانه، ويتوجه بكل كيانه إلى بابه تعالى معبّراً بكلمات التوبة وعبارات الاستغفار المعروفة.

ب . رجوع الخواص الذين بدأوا بالتنبه إلى حقائق ما وراء الستار، إذ ينشرون أجنحة الهمة، عقب كل حركة ونأمة وفكرة تخالف أدب الحضور والمعية، ليستنجدوا برحمة الحق تعالى ويلتجئوا إلى عنايته، أمام كل غفلة صغيرة كانت أم كبيرة، تكثفت في القلب وغشيت أفق البصيرة. فالروح التي تبذل هذا الجهد قد نالت حقاً ما وصفه الرسول الكريم ﷺ من حقيقة في حديثه الشريف (التَّائبُ منَ الذَّنْب كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ فإذا أحب الله عبداً لم يضره ذنبه ثم تلا: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ قيل: يا رسول الله وما علامة التوبة؟ قال: (الندامة).[1]

ج . توجّه أخص الخواص الذين يديمون حياتهم في أُفق (إِنَّ عَيْنَيَّ تَنَامَانِ وَلا يَنَامُ قَلْبِي).[2] حيث يقتلعون كلَّ ما يتعلق بما سواه تعالى ويكون حجاباً في قلوبهم وفي سرّهم وفي أخفى خفاياهم، ويجتثونه من أعماق ذواتهم،

---

١) الرسالة للقشيري ١٦٨؛ كنز العمال للمتقي ٢٦١/٤ رقم الحديث ١٠٤٣٨، نقلا عن ابن نجار. وقد وردت أجزاء منه وبألفاظ مختلفة؛ انظر مثلاً: ابن ماجة، الزهد ٣٠؛ المعجم الكبير للطبراني ١٥٠/١٠؛ شعب الإيمان للبيهقي ٣٧٥/٤، ٤٣٩/٥؛ نوادر الاصول للحكيم الترمذي ٣٤٩/٢.

٢) البخاري، التهجد ١٦؛ مسلم، صلاة المسافرين ١٢٥.

ويرمونه في وديان العدم، فيعاودون استشعار علاقتهم بنور الأنوار، مظهرين حقيقة قوله تعالى: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّـهُ أَوَّابٌ﴾ (ص:٤٤) سائرين في مدار "الأوب".

والتوبة التي هي تجديد الإنسان لنفسه باستمرار، أو رجوعه إلى صفائه الأصلي وانسجامه مع فطرته الذاتية، بعد تعرّضه لتشوهات طبْعية وداخلية، تحتوى كل مرتبة من مراتبها على أمثال الأمور الآتية:

١. الندم من أعماق القلب.

٢. تذكّر الأخطاء السابقة بارتعاش ورِعدة.

٣. إزالة المظالم ونصرة الحق.

٤. إيفاء الواجبات والتكاليف الفائتة حقَّها وإمعان النظر مجدداً في المسؤوليات.

٥. ملء الخواء الذي أحدثته الأخطاء والزلّات في الروح، بالعبادة والطاعات واغتنام التضرعات في جوف الليالي.

٦. وبالنسبة للخواص وأخص الخواص: التحسر والبكاء على الحياة التي تمضي دون ذكر وفكر وشكر، والتأوّه والأنين وَجِلاً مما يمكن أن يتسرّب بقصدٍ شيءٌ مما سواه تعالى في الشعور والفكر.

إن الذي لا يئن ولا يتوجع من الخطأ مهما كان مستواه في أثناء التوبة ولا يرتعش نادماً من عثرات يمكن أن تحدث، ولا يشعر باشمئزاز ولا يتملّكه الازدراء نحوها، ولا يرتعد من احتمال وقوعه تحت خط الاستقامة مرة أخرى – رغم كل شيء– نتيجةَ بُعده عن الله سبحانه، ولا يحاول التخلص مما وقع فيه من أخطاء وزلاّت في عبوديته لله وتخلّقه بالعبودية.. يكون كاذباً في توبته.

وعن "النصوح" رمز التوبة الحقيقية، يقول مولانا جلال الدين الرومي الآتي:

تُوبه ای کَرْدَمْ حَقِیقَتْ بَا خُدا نَشْکَنَمْ تَا جَانْ شُدنْ اَزْ تَنْ جُدا

بَعْدَ ازان مِحْنَتْ کِرا بارِ دِگر پا رَود سُوی خَطَر إلا که خَر [1]

يعني: "لقد تبتُ إلى الله توبة حقيقية بحيث لا أتراجع عنها إلى أن يفارق الروحُ الجسد. فلا يخطو بعد تلك المحنة إلى الهلاك والخطر إلاّ الحمار".

أجل، التوبة قَسَمُ الفضيلة وعهدُها. والثباتُ عليها بطولة وشأن إرادة حازمة، فمن راعى أصول التوبة وثبت عليها فله مرتبة الشهداء، كما أخبر بذلك سيد الأوابين.[2] ويخبر كذلك أن من لا يتخلص كلياً من الآثام والخطايا رغم كثرة قيامه بالتوبة فإنه يهزأ بالباب الذي يتوجه إليه التوابون والأوابون.[3]

نعم، إنه ليس جاداً في دعواه من يقول: أخاف جهنم، ولا يتجنب الذنوب. ويقول: أنا مشتاق إلى الجنة، ولا يعمل صالحاً. ويقول: أحب الرسول ﷺ ويهمل السنن النبوية. كما أن من الصعوبة بمكان قبول إخلاص الذين ينقضون عهودهم ويمضون حياتهم في اجتراح الآثام، وتوبات صورية. حتى لكأن توبتهم هذه مجرد توقفات في ثنايا المعاصي.

إن أول منزل للسالك وأول مقام للطالب هو "التوبة". أما مقامه الثاني فهو "الإنابة". ونمر مرّ الكرام على الإنابة الشائعة بين الصوفية وهي الأصول والآداب والأعراف المتبعة في مراسيم الانتساب إلى أي مرشد، فنقول:

---

١) مثنوي معنوي لمولانا جلال الدين (فارسي) ج٥/ص٨٠٥/ب٢٣٢٤-٢٣٤٥.

٢) انظر: المسند للديلمي ٧٦/٢.

٣) انظر: شعب الإيمان للبيهقي ٤٣٦/٥٢؛ المسند للديلمي ٧٧/٢.

مثلما أن في التوبة توجيهاً للشعور والفكر والسلوك من المخالفات إلى الموافقات ومن المعارضات إلى المطابقات، ففي الإنابة محاسبةٌ وتفقّد لمطابقات الفرد وموافقاته الموجودة. فلئن كانت التوبة سياحة في أفق "السير إلى الله" فالإنابة هي "السير في الله" و"الأوبة" معراج في رحاب "السير من الله".

ويمكن أن نعرّف أيضاً هذه التوجهات الثلاثة بالآتي:

إن الالتجاء إلى الله خوفَ العقوبة، هو التوبة. والفناء في الله برغبة الحفاظ على المقامات والدرجات هو الإنابة. والانغلاق تجاه كل ما سواه تعالى هو الأوبة.

فالأول: صفة جميع المؤمنين، وأذانُهم: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ (النور: ٣١) من جميع الزلّات والخطيئات.

والثانية: صفة الأولياء والمقرّبين، وإقامة عبادتهم من حيث المبدأ ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾ (الزمر: ٥٤) ومن حيث المنتهى ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ (ق: ٣٣).

والثالثة: خاصية الأنبياء والمرسلين، وشعارهم ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص: ٤٤) فهذا تقدير وتكرمة إلهية. فلا توبة لمن هم في معية الله في كل وقت حيثما كانوا وكيفما كانوا غير فاقدين للشعور بالحضور الإلهي ولو للحظة. لذا فكلماتهم المعبّرة عن التوبة تفيد معنى "الأوبة" أو "الإنابة". فلا يمكن فهم قول سيد الأنام ﷺ: (وَاللهِ إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً)[1] إلاّ على هذه الصورة.

---

١) البخاري، الدعوات ٣؛ مسلم، الذكر ٤١؛ الترمذي، تفسير القرآن سورة محمد.

ومن ناحية أخرى فالتوبة هي لمن لا يعرف "القرب" و"المعية"، لأن الـذين يديمون حياتهم في آفاق القرب، يعدّون الرجوع إلى الله المهيمن علـى جميـع تصرفاتهم والرقيب على كل ما يعملونه والأقرب إليهم من كل شيء، يرونه – بمعناه لدى العوام– غفلة. فهذه المرتبة ليست مرتبة أهل وحدة الوجود بل أهـل وحدة الشهود، بل هي مرتبة أعلى منهما وأرفع، فهي مرتبة السائرين في ظـل مشكاة محمد وسنة أحمد عليه أكمل التحايا وأتم الصلوات.

ومن هنا فتكلم الذين لم يبلغ مستواهم هذه المرتبة، وهـم غـارقون في "الطبيعة" منهمكون بـ"الوجود"، وذكرهم "الأوب" و"الإنابة" ولا سـيما حول منتهى هذه المقامات، كَلِمَات شَوَارِد تُكَالُ جُزَافًا.

اللّهم اجعلنا من الذين آمنوا وتابوا وأصلحوا إنك غفور رحيم،
وصلّ وسلّم على محمد سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

المحاسبة

المحاسبة، أو محاسبة النفس ومناقشتها؛ هي تفقّد المؤمن عمله كل يوم، كل ساعة، خيراً كان أم شراً، صحيحاً أم خطأً، إثماً أم ثواباً، وتدقيقه له، ومقابلته بالشكر على ما صدر منه من حسنات وخيرات، وسعيه بالاستغفار لإزالة الآثام والعثرات، ومحاولته بالتوبة والندامة إصلاح السيئات والزلات. ومن هنا تعدّ المحاسبة همّة وجهداً في غاية الأهمية وتشبثاً جاداً في إثبات الإنسان لكينونته الذاتية.

كان السلف الصالحون يدوّنون أعمالهم اليومية وأطوارهم أو يحفظونها في ذاكرتهم كما سجّلها صاحب (الفتوحات المكية)، ومن ثم يستعملون بدقة متناهية ما يعدّونه شيناً يورث قلقاً قلبياً واضطراباً وجدانياً، يستعملونه تجاه ما قد يحصل في نفوسهم في المستقبل من عواصف الغرور ودوامات العجب. وفي الوقت نفسه يحتمون بالاستغفار مما يعدّونه إثماً، مستجيرين بحَجْر التوبة الصحي تجاه فيروسات الأخطاء والزلّات. وفي نهاية المطاف يتذللون في انكسار وخضوع شكراً لله تعالى على ما قاموا به من حسنات.

ويمكن أن نعرّف المحاسبة أيضاً بأنها اكتشاف الإنسان بنفسه، جوانبَه اللدنّية وعمقَه الداخلي وسعة معناه وروحه، ومعرفته لهذه الجوانب، ومن ثم القيام

بتحليلها وإظهار مكنونها. فهي بهذا المعنى جهدٌ روحي، ومخاض فكري في سبيل استخراج قيَم الإنسان الحقيقية، وإنماءٌ للمشاعر التي هي أسس هذه القيم والحفاظ عليها. ولا يمكن أن يحافظ الإنسان على استقامة الوجدان إلاّ بمثل هذا الجهد والفكر، اللذين يمكّنانه من التمييز بين الخير والشر، والجميل والقبيح، والنافع والضار، مما يتعلق بأمسه ويومه وغده.

أجل، إن تقييم الفرد لوضعه الحالي وتمّيوءه للمستقبل، وتلافيه الأخطاء التي ارتكبها في الماضي وتطهّره منها لدى الحق تعالى؛ واكتشافه لقيمته الحقيقية بتفقّده لنفسه في أمسه ويومه وغده؛ والأهم من هذا تجديد عالمه الداخلي باستمرار، من حيث علاقته بالله تعالى، لا يكون إلاّ بعد محاسبته لنفسه محاسبة صارمة دقيقة. ذلك لأن محتواه الذي هو فوق الزمان ومشاعره المقيدة بالزمان، مرتبطتان ارتباطاً قوياً بحياته القلبية والروحية وببقائه مستشعراً بما أنعم الله عليه من نعم لدُنّية.

هذا ولا يمكن للمسلم أن يستغني عن المحاسبة قطعاً، سواءً من حيث حياته القلبية والروحية أو من حيث أطواره وأحواله العامة. فهو من جانب يسعى لإحياء ما فرّط في أمسه وإقامة ما انهدم من أركان ماضيه الذي تغافل عنه، بما يسمع في أعماق وجدانه من أصداء نفحات إلهية آتية من الماوراء (الغيوب) بأداء ملؤه الأمل وبلهجة مفعمة بالرحمة: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ﴾ (النور:٣١) ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾ (الزمر:٥٤).. ومن جانب آخر يتيقظ بتنبيهات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ (الحشر:١٨) التي تُرعد كالصواعق، وتبشّر كالرحمة، فتدفع بالإنسان إلى تفحص نفسه وتنظيمها مُعرضاً عن جميع السيئات

ما وسعه ذلك.. فيقيّم آنه الحاضر كأنه فصل ربيع وموسم إخصاب، مُكسباً كل لحظة من لحظات ذلك الآن عمقاً آخر، بالبصيرة وبالشعور الذي يبعثه الإيمان.. وإن واجه عارضاً جسمانياً بين حين وآخر وتزعزع، فهو حذر متأهب في كل آن كالمتقين الذين تخفق صدورهم بالمهابة والخشية من الله، وفق البيان الإلهي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنْ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (الأعراف:٢٠١).

المحاسبة، كالقنديل في عالم المؤمن الداخلي، وكالناصح الأمين في وجدانه، يميّز بها الخير عن الشر والحسن عن القبح، وما يحبّه الله عمّا لا يحبه. وبريادة ذلك الناصح الخيّر وإرشاده يقتحم ما لا يُقتَحَم من عقبات ويبلغ هدفه دون مبالاة بالعوائق.

والمحاسبة في مواضيع الإيمان والعبودية والتوفيق والقربية ونيل السعادة الأبدية تدور بمحض العناية الإلهية والرحمة الإلهية.. وهي الخصم اللدود للأمان التام مثلما هي لليأس. أجل، إنها مفتوحة كلياً على السكينة والاطمئنان، كما تتمحور على الخوف والقلق والاضطراب. ففي ربوع القلوب المخضلّة بالخشوع، المتفتحة للمحاسبة تُرجّعُ دائماً صدى أنين : (لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا)[1].. وفي إقليمها حيث تعيش الطمأنينة والمهابة مندمجة، تدوّي انكسارات الأفذاذ الذين أنقضَت المسؤوليةُ ظهورَهم بـ (لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ)[2].. وهم يشعرون كل آن كأن قوله تعالى:

---

١) مسلم، الصلاة ١١٢؛ البخاري، الكسوف ٢؛ الترمذي، الكسوف ٢؛ ابن ماجة، الزهد ١٩.

٢) انظر: الترمذي، الزهد ٩؛ المسند للامام أحمد ٥/١٧٣. لكلام أبي ذر ﷺ بعد ما نقل الحديث السابق.

﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ (التوبة:١١٨) قد وردت بحقهم.. ففي كل جزء من أجزاء دماغهم يرنّ: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾ (البقرة:٢٨٤). وتنطلق ألسنتهم بصراخ: (يَا لَيْتَنِي لَمْ تَلِدْنِي أُمِّي).[1]

ولا شك أن المحاسبة بهذا المقياس أمر صعب عسير، ولكن الذي لا يحاسب نفسه بهذا المستوى لا يمكن أن يستثمر الزمان، فلا يتميز يومُه عن أمسه ولا غده عن يومه. فمن يهدر الزمان فلن يبدي فعالية وكفاءة أخروية البتة.

إن محاسبة النفس باستمرار ومعاتبتها هي من كمال الإيمان، وكل روح تستهدف أُفق "الإنسان الكامل" ووضعت خطتها وفقه، هي في شعور تام بحياتها المعيشة، فيقضي صاحبُها دقائق عمره في مجاهدة مع نفسه، حتى أنه يسأل الشفرة (أو كلمة السر) عن كل خاطر يمر على قلبه، ويطالب تأشيرة الدخول لكل فكر يرد إلى عقله، ويراقب مراقبة دائمة نفسانيته -أي التي تداخلت فيه النفس- وأعماله المفتوحة للشيطان ولتوتر الأعصاب ولحدة الحساسية. بل كثيراً ما يحاسب نفسه على أجلّ حالاته وأفضل أطواره.. ويحرّك كل صباح ومساء ما في يده من مكوك لحياكة المحاسبة بين لُحمة اللوم وسَداه ساعياً بهذه الحالة الروحية حياكة نسيج حياته الرقيقة.. فيعيد كل مساء استعراض نواقصه وأخطائه ويدققها، ويستقبل كل صباح ساداً أبوابه للآثام ويفتح صفحة جديدة بعزم جديد.

وهو في مثل هذا الوفاء والتواضع والمحوية،كلما طأطأ رأسه ومسحه بتراب

---

١) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد ٣٦٠/٣؛ المصنف لابن أبي شيبة ٩٨/٧، ١٥٢؛ شعب الإيمان للبيهقي ٤٨٦/١. حيث يسند هذا الكلام إلى سيدنا عمر، أبي ميسرة، عمرو بن شرحبيل وأمثالهم ﷺ.

قدمه ساجداً خاشعاً منكسراً ذليلاً، تفتّحت له أبواب السماء على مـــصاريعها، فيقال له: "تعال أيها الصادق، أنت من الخواص وقد شهدنا لك أنك من أهـــل الوفاء، فهذا موضع الخواص" فيتشرف كل يوم بسياحة سماوية أخرى.

وفي الحقيقة، أليست هذه الروح التي هي أصفى الصفاء وأنقى النقاء هي المقصودة في قَسَم الرب الجليل: ﴿وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ (القيامة:٢)؟

اللّهم يا أرحم الراحمين نجّنا من الكرب العظيم، وصلّ وسلّم على سيدنا محمد الشفيع يوم الدين وعلى آله وأصحابه الكرام البررة أجمعين.

التفكر

التفكر في أي موضوع من المواضيع، يعني إعمال الفكر إعمالاً واسعاً وعميقاً ومنظّماً. ولدى أربابه هو زناد القلب، وغذاء الروح، وروح المعرفة، ودم الحياة الإسلامية وروحها وضياؤها. فإن انعدم التفكر أظلم القلب، واضطربت الروح، وتحولت الحياة الإسلامية إلى موات هامد.

التفكر هو نورٌ في القلب، وأيّ نور، به يميّز الخير عن الشر والنفع عن الضر والحسن عن القبح، وبه تتحول الكائنات إلى كتاب يُقرأ، وبه تكسب كل آية جليلة عمقاً خاصاً بها.

التفكر مصباح يضيء الحوادث، للاعتبار واستنباط النتائج المتنوعة منها.. وهو مفتاح ذهبي للتجارب.. ومشتل لأشجار الحقيقة.. وبؤبؤ نور القلب. ولأجل هذا فالإنسان الأُفق ﷺ الذي تسنّم الذرى في كل شيء حسن جميل، استولى في التفكر على الذروة بقوله: (تَفكَّروا في آلاء الله ولا تَفكَّروا في ذاته، فإنّكُم لَن تَقْدروا)[1] إذ وضّح لنا حدود ميدان ما يمكن أن نفكر فيه، مذكّراً بقوتنا وإمكاناتنا وقدراتنا.

---

١) المعجم الأوسط للطبراني ٦/٢٥٠؛ شعب الإيمان للبيهقي ١/١٣٦؛ مجمع الزوائد للهيثمي ١/٨١؛ حلية الأولياء لأبي نعيم ٦/٦٦؛ كشف الخفاء للعجلوني ١/٣٧٠-٣٧١.

وكم هو جميل ما قاله "صاحب المنهاج" تذكيراً لنا بهذا المعنى:

دَر آلاء فِكر كَردن شَرط راهست
وَلى دَر ذاتِ حَق مَحضِ گُناهست

بُوَد دَر ذَاتِ حَق اَنديشه بَاطِل
مُحالِ مَحِض دان تَحصيلِ حَاصل[1]

أي: إن التفكر في النعم هو شرط هذا الطريق، ولكن التفكر في ذاته تعالى إثم مبين. نعم، إن التفكر في ذاته تعالى باطل بيّن، فاعلم أنه محال محض وتحصيل حاصل.

وفي الحقيقة، أليس القرآن الكريم يوصينا بآياته الجليلة أمثال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (آل عمران:١٩١).[2] إلى أفضل طريق للتفكر، وذلك بعرضه كتاب الكائنات أمام أنظارنا، وإظهاره كيفية كتابته وخواص حروفه ومزايا كلماته ونظام جمله وانتظامها، ورصانة هيئته العامة وقوتها.

أجل، إن التوجه إلى كتاب الحق تعالى في كل تفكر، وفي كل تصور، وفي كل حال وطور، والسعي لتدبّره وإدراكه، ومن ثم تنظيم الحياة وفق فهمنا هذا وامتثاله في حياتنا المعيشة، يجعل الحياة كلها ذات مذاقٍ روحاني؛ إذ إن كشف الأسرار الإلهية في كتاب الكائنات وإظهارها، يمنح الإنسانَ

---

١) البيتان للشاعر (الشبستري) في ديوان (كلشن راز).

٢) وانظر كذلك السور: الرعد: ٣؛ النحل: ١-٦٥،١٨-٧٢؛ الروم: ١٩-٢٧؛ الجاثية: ١٢-١٣ وأمثالها.

كل آن عمقاً إيمانياً آخر-فوق إيمانه- وتلوناً روحياً يرتشف مذاقه، هذا الكشف الجديد والنتائج المستخلصة منه نور يمتد من الإيمان إلى المعرفة، ومن المعرفة إلى المحبة، ومن المحبة إلى لذائذ روحانية، ثم المضي قُدُماً إلى الآخرة ورضوان الله تعالى. فهذا هو الطريق المنور ليصبح السالك إنساناً كاملاً.

التفكر مفتوح على جميع العلوم حيث إنها ميدان بحثه وتنقيبه، إلاّ أن العلوم العقلية والتقريرات الوضعية ما هي إلاّ مقدمات لهذه النتيجة العظيمة وواسطة لها وطريق إليها.. وهذه جميعها متوجهة بمحتواها الحقيقي وبوجهها الصائب إلى العلم الإلهي الواحد، إن لم يُسقم دماغ الإنسان بمعالجات خاطئة.

نعم، إن التفكر في الموجودات ومطالعتها ككتاب، إنما يثمر الثمرة المرجوة منه، ويكون موضع واردات ذات بركة، بالإيمان بالله وأنه سبحانه هو خالق جميع الأشياء بجميع متعلقاتها، وهذا هو شعار روّاد الحياة القلبية وأبطال الحياة الروحية الذين أدركوا يقيناً أن كل شيء يستند إلى الله وحده بجميع أحواله وكيفياته فبلغوا الاطمئنان بمعرفة الله ومحبة الله وذكر الله.

والتفكر الذي لم ينظّم من البداية أي لم يؤسس على إسناد كل شيء إلى الحق سبحانه، وإنما يتناهى إليه تعالى بعد لأيٍ في النتيجة ، يقابله التفكر المخطط له من البداية على أساس أن الخلق والأمر وكل شيء يستند إلى الله تعالى. هذا التفكر يجري ويستمر إلى اللانهاية بأبعاد جديدة دون انقطاع قط. بمعنى أن مثل هذا التفكر الذي يبدأ من الله سبحانه باسمَيْه "الأول والظاهر" ومن ثم يتوجه إليه تعالى أيضاً باسمَيْه "الآخر والباطن" ليس متناهياً بل غير متناه. ومن هنا فالحث على هذا النمط من التفكر الذي توضَّح هدفُه منذ البداية، فيه إرشاد إلى

استعمال مناهج العلوم الطبيعية وتعلّم أصولها التي تحاول تقرير شكل الوجـــود وتشخيص تجليه.

أجل، لما كانت السموات والأرض بجميع أجزائها ومركباتها ملك الله تعالى، فإن مطالعة أي حادثة وأي شأن وأي نظام في كتاب الموجـــودات، تعني قراءة أحكام الخالق العظيم وكيفيات تصرفه في شريعته الفطرية. ولا جرم أن طريق من يقرأ هذا الكتاب حق قراءته وينظم حياته وفق ما قـــرأ سيكون طريق هداية وتقوى، وسيكون مثابه الجنة وشرابه الكوثر. ذلـــك لأنه، مقابل أصحاب الهلاك والخسران الذين يجولون في وديان الكفـــران بدلالة إبليس غافلين عن الله المولى الحق لأنواع النعم والآلاء وألوان الحسن والجمال في الدنيا، هناك من يعرف المنعم الحقيقي والمالك لكـــل شـــيء، ويؤمن به ويخضع له بشعور إيماني يجول في دائرة بـــين الـــشكر والنعمـــة والنعمة والشكر، بريادة الملائكة وقيادة الأنبياء والصديقين ويمضي عمـــره هكذا كـــ"باز التفكر"[1] يحوم فوق قمم الأفكار، فيحلّق عاليـــاً فـــوق الوديان نفسها التي تتساقط فيها الجموع الغافلة ويتردى فيها الهـــالكون.. فيوفي بهذا التفكر حق ما ناله من ألطاف ربه الجليل. وإن اعترضه عائق في عالم الفكر اجتازه ببُعد الذكر، فيمر من التدبير إلى التسليم، ومن التمكين إلى التفويض، ويبلغ هدفه طائراً في السموات بينما الآخـــرون في الأرض أسرى المسافات.

---

١) يستعمل المؤلف المحترم اسماً لطير يحلّق عالياً وبانسيابية بديعة، فوجدنا أقرب الطيور إلى ما يقصده هو الباز. (المترجم)

اللّهم اجعلنا من الذين يذكرونك قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض، وصلّ وسلّم على سيد المتفكرين وعلى آلـــه وصحبه المخلَصين.

الفرار والاعتصام

الفرار هو الهرب من شيء والابتعاد عنه. ولدى أربابه أصبح عنواناً للسير من الخَلق إلى الحق سبحانه، والالتجاء من الظل إلى الأصل، وترك القطرة والتوجّه إلى البحر، وترك الذرة والتوجّه إلى الشمس، والانسلاخ من الأنانية وإذابة الوجود في أشعة الحق تعالى، بحيث يمكن أن تربط هذه كلها بما تشير إليه الآية الكريمة: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللهِ﴾ (الذاريات:٥٠) من "السير القلبي والسير الروحاني" للإنسان. وكلما ابتعد الإنسان في سبيل إيمانه عن جو الجسمانية القاتل تقرّب إلى الله تعالى وكان مؤدياً طوراً معقولاً لذاته موقراً لها.

ولمعرفة كيف يترقى مثل هذا الفارّ الملتجئ إلى الحق سبحانه، نستمع من العبد الصادق لدى ذلك الباب الإلهي، سيدنا موسى -على نبينا وعليه السلام- قوله: ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنْ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الشعراء:٢١) الذي يلفت النظر فيه إلى أن الطريق الموصل إلى الذوق والوصال والخلافة والقرب إنما يمرّ من الفرار. وبقوله هذا يؤدي دور الريادة والإرشاد لإرادات تقتفي أثر النبوة.

إن فرار العوام هو الاحتماء من ضيق الوجود وضجيجه وقبح المعصية إلى رحاب الأُنس بالله وجميل غفرانه جل جلاله. فهؤلاء يتْلُون في كل طرفة

عين: ﴿رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ (المؤمنون:١١٨) ويرددون في كل حركاتهم وسكناتهم: (أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ).[١]

أما فرار الخواص، فهو من الصفات إلى الصفات، ومن السر إلى الشهود، ومن الرسوم إلى الأصول، ومن حظوظ نفسانية إلى مشاعر روحانية، حتى يغدو وِردُهم الدائمي: (اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ).[٢]

وأما فرار أخص الخواص فهو من الصفات إلى الذات، ومن الحق سبحانه إلى الحق تعالى، فيقولون دائماً: (وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ)[٣] ويعيشون في جو الهيبة والمهابة.

وهذه الأنواع من الفرار تنتهي إلى التجاء، إلى حماية، إلى اعتصام. فكما يتناسب الفرار طردياً مع العمق الروحي للفارّ، فالنقطة التي يبلغها من حيث النتيجة متفاوتة أيضاً:

فالأوائل: ينصبون أخبيتهم على سفوح المعرفة، ويذكرون الله سبحانه في كل شيء، من الذرات إلى المجرات. فيطلبون مطالب تعجز عنها الموازين ويبدأون بطلب ما لا يمكن وقوعه، وإذا بهم يجدون في وجدانهم مصداق (مَا عَرَفْنَاكَ حَقَّ مَعْرِفَتِكَ)،[٤] فيرددون في ذهول:

اِعْتِصَامُ الْوَرَى بِمَعْرِفَتِكَ عَجَزَ الْوَاصِفُونَ عَنْ وَصْفِكَ

تُبْ عَلَيْنَا فَإِنَّنَا بَشَرٌ مَا عَرَفْنَاكَ حَقَّ مَعْرِفَتِكَ

---

١) البخاري، الدعوات ٢؛ الترمذي، الدعوات ١٥.

٢) مسلم، الصلاة ٢٢٢؛ الترمذي، الدعوات ٧٦؛ أبوداود، الصلاة ٣٤٠ (واللفظ هنا منه).

٣) مسلم، الصلاة ٢٢٢؛ الترمذي، الدعوات ٧٦.

٤) انظر: فيض القدير للمناوي ٤١٠/٢؛ أقاويل الثقاة لمرعي بن يوسف ٤٥.

والثواني: يطلقون في كل آن أشرعتهم في بحرٍ آخر للمعرفة، فيمضون عمرهم بتلونات واردات متنوعة. ولأنهم لم ينجوا من البرازخ يعجزون عن بلوغ أُفق الحيرة التامة. فيرنون بأبصارهم كل آن نحو مراتب الصعود ويطيرون من مرتبة إلى أخرى مرتعدين من تصور السقوط.

والثوالث: هم الناجون من موجات مَدّ "الحال" وجَزره. رؤوسهم غارقة دائماً في عمق آخر من أعماق الحيرة، وعيونُهم تحدق ذابلة بشراب "عين ماء"[1] فيبلغون من النشوة مبلغا قد لا يفيقون منها حتى بصور إسرافيل. ولا يمكن أن يعبّر أحد عن مدى عمق أفكارهم وسريان تخيلاتهم إلاّ مَن ذاق ما ذاقوا من نشوة.

آن خيَالاتي كه دَامِ اَوْلِيَاسْت عَكسِ مَهْ رُويَانِ بُستَانِ خُدَاسْت[2]

يعني: إن الخيالات التي هي شِباك الأولياء، إنما هي مرآة عاكسة تعكس الوجوه النيرة في بستان الله.

المقصود من (بستان خدا): مرتبة الواحدية. والمراد من (مه رويان): أسماء الله وصفاته الجليلة التي تتميز في مرتبة الأحدية. وعلى هذا يمكن أن نفهم المسألة كالآتي:

"إن الشِباك التي تلتف بأقدام الأولياء ليست إلا تجليات الأسماء والصفات، وما هي إلاّ خيالات لدى فاقدي الأبصار الموصدة أبوابُهم في

---

١) لعل المقصود: "عين الحياة هي باطن اسم الحي. فمن تحقق بذلك الإسم يشرب من ماء الحياة فلا يموت ابداً". كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي ٢/١٢٤٤.

٢) مثنوي معنوي لمولانا جلال الدين (فارسي) ج١/ص١٦/ب٧٢.

وجـــه الحقيقة". وبعبارة "صاري عبد الله أفندي":

"إن مرايا قلوب الأنبياء والأولياء، مع أنها مظاهر ومعـــاكس الأسمـــاء والصفات الكلية الإلهية، فإن الصفات الربانية تغدو بستاناً لوجوههم الـــنيرة كالقمر، يسحرهم كل آن بسحر جديد".

والخلاصة: إن هؤلاء قد فرّوا من كل ما يجب أن يفروا منه، إلى ركن شديد كما هو مضمون الآية الكريمة ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا﴾ (البقرة :٢٥٦). فلا انفصام لهم عنها ولا انقطاع بـــإذن الله. ذلـــك لأن الـــذي يتوجهون إليه، ويلجأون إليه، هو الموجود الحق، دائمٌ باقٍ من الأزل إلى الأبد، بصير بكل شيء، رقيب على كل شيء، وهو الكبير المتعالي الحـــق. فهـــؤلاء وجدوه، واعتصموا بحبله المتين، لذا فهم في منجىً من الهلاك والتنكـــب عـــن الصراط والانفراد والتنائي، ذلك لأن ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُـــواْ يُخْـــرِجُهُم مِـــنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ﴾ (البقرة: ٢٥٧).. فتتبدد الظلمات التي تحيط بهم مـــن كـــل جانب وتزول، فتبصر العيون الحقيقة بجلاء، وتسمعها الآذان بوضوح، وتغـــدق عليهم السماء نجوم الابتسامات، وتسربلهم الأقمار والشموس بسرابيل أُخروية، فيغدو كل شيء كتاباً بديعاً يُقرأ، ومنظراً رائعاً يُشاهد.. من الذرات إلى المجرات. ويأتي الربيع الطلق يختال ضاحكا مسروراً، ويُسمع الصيفُ مشاعرنا أنغاماً عذبـــة ندية... فتُمحى الآلام وتزول الأوجاع، وتتفجر من كل جانب أذواق روحانية، ويستشعر الإنسان معاً حظوظ عيشه ويتذوق أذواق وجوده كإنسان.

فالذين يريدون تذوّق هذه النشاوى الروحيـــة اللامتناهيـــة إلى الأبـــد، يُنظّمون هجرات فائقة جادة في كل حين، مما لا يريده الله إلى ما يريده ومما

نهى عنه إلى ما أمر به ومما لا يحبه ولا يرضاه إلى ما يحبه ويرضاه. فيعيشون في فرار إليه تعالى، لا يقرّ لهم قرار إلاّ بإسناد كل شيء إليه سبحانه، وهذا هو الاعتصام الحقيقي.

اللّهم إني أسألك من خير ما سألك به نبيك محمد ﷺ،
وأعوذ بك من شر ما استعاذك منه نبيك محمد ﷺ.

الخلوة والعزلة

الخلوة والعزلة، تأتيان بمعنى: الانفراد بالنفس. وبتعريف آخر: الانـــزواء تحت إشراف أي مرشد أو دليل للتعبد.[1] وتفسير آخر: هي عنوان آخـــر للمحاورة والصحبة مع الحق تعالى بلسان اللطائف منغلقاً كلياً تجاه جميع ما سواه تعالى، وذلك بتصفية القلب من الاعتقادات الباطلـــة، والأحاســـيس المظلمة، والتصورات السيئة، والتخيلات التي تُبعد عن الله سبحانه.

والعزلة هي بُعدٌ من أبعاد الخلوة، والرياضات بعدٌ آخر لها. وقد قيـــل "الأربعينية" حيث المرتبة الأولى للخلوة أربعين يوماً. والمرشد أو الـــدليل في أثناء إدخاله المريد أو المرشّح إلى الخلوة يصحبه إلى باب غرفته، وهناك يدعو الله له، ثم يفترقان. فينفرد المريد في تلك الغرفة ويعيش مـــا يـــشبه حيـــاة المعتكف، حيث يأكل بقسطاس ويشرب بميزان مقللاً من حاجاته البدنية إلى أدنى حدٍّ ممكن. ويحاول نسيان رغباته الجسمانية بصورة عامة، بالانشغال – دون توقف ليل نهار– بالذكر والفكر، وهذه الخلوة تعدّ باباً مـــن أبـــواب التقرّب إلى الله سبحانه.

والخلوة قديمة، بل ضاربة في القدم، وذلك بمعناها العزلة عن الخلق وأخذ النفس بالرياضات؛ إذ هي موجودة في جميع الطرق الصوفية تقريبـــاً، حـــتى

---

١) ليس هنا موضع تحليل المعاني الأخرى التي تنطوي عليها الخلوة المقابلة للجلوة.

يمكن سحبها إلى عهود الأنبياء العظام عليهم السلام.

ففي المقدمة فخر الإنسانية ﷺ وكثير من الأنبياء والأولياء قد زاولوا الخلوة والعزلة. بيد أنه مثلما لم يؤخذ الطرز والنظام نفسه أو عُجز عنه، لم تحافظ على أصالتها محافظة تامة، فتبدلت ولو قليلاً، حيث أُفرغت في قوالب مختلفة، فعزلة سيدنا إبراهيم[1] وأربعينات سيدنا موسى[2] ورياضات سيدنا المسيح[3] وخلوات سلطان الأنبياء[4] وأمثالهم كثير.. (عليهم السلام جميعاً) قد تعرضت للتغيرات والانكسارات، وتبدل قسمٌ من ماهياتها تحت ظروف مختلفة وأوساط متباينة، وبتطبيقات متغايرة على أمزجة متنوعة. وما كان يمكن أن يحدث غير هذا، لأن الخلوة لها علاقة قوية بالبناء الروحي للأشخاص وبأمزجتهم ومذاقاتهم وسجاياهم واستعداداتهم الروحانية. ولهذا فالمرشدون الكاملون هم الذين يعلمون مَن يُكلَّف بالخلوة وكيف وإلى أي مدى.

وقد زاول مولانا جلال الدين الرومي في عهوده الأولى كثيراً من "الأربعينات" ولكن لما وجد مرشده ترك الخلوة واختار الجلوة.[5] وقد سار الكثيرون قبله وبعده في الطريق نفسه.

إن الرياضات بُعدٌ للخلوة وهي إلجام النفس تجاه الرغبات البدنية وحث الروح المشتاقة إلى المعالي، نحو سماء الكمالات الإنسانية. نعم، بالرياضات

---

١) انظر: سورة مريم: ٤٨.

٢) انظر السور: البقرة: ٥١؛ المائدة: ٢٦؛ الأعراف: ١٤٢.

٣) انظر: ابن ماجة، الأشربة ٢٥؛ المصنف لابن أبي شيبة ٣٤٠/٦، ٢٤٤/٧؛ شعب الإيمان للبيهقي ٣٧٢/٧.

٤) انظر: البخاري، بدء الوحي ٣؛ مسلم، الإيمان ٢٥٢.

٥) **الجلوة:** معاشرة الخلق وتقابل الخلوة. (المؤلف)

وحدها يمكن إلجام النفس، وبالرياضات يمكن أن تُدفع النفس إلى ترك ما افتتنت به من الأحاسيس، وبالرياضات يمكن أن تُقحَم النفس مضطرة إلى التسليم والانقياد، وبالرياضات يمكن أن تعوَّد النفس على التواضع والمحوية، حتى تكون تراباً تطأه الأقدام، وهذا هو طريق استنبات الأزهار:

خَاكْ شَوْ خَاكْ بِرُوَيْدْ بَا تُو گُلْ

كِه بَجُزْ خَاكْنِيسْت كَسْ مَظْهَرِ گُلْ

أي:

وكن أرضاً لينبُتَ فيك وردٌ فإنّ الوردَ مَنبِتُهُ الترابُ

وبطريق الرياضات يمكن أن ينال كل فرد ألطافاً معينة.. منهم الذين يهذّبون الأخلاقَ بالعلم والعملَ بالإخلاص ويبلغون شعور الأدب في معاملاتهم سواءً مع الله سبحانه أو مع الخلق.. ومنهم الذين يجدون أنفسهم دائماً في مدّ وجزر لدى معاملاتهم مع ربهم، ويبحثون بحثاً دؤوباً عن طرقٍ تقرّبُهم أكثر إلى ربهم الجليل من دون أن يدعوا لحظة تفوتُهم.. ومنهم من ينسلخ من غلافه الصلب -كما ينسلخ اليعسوب- ليديموا حياتهم في العوالم السماوية التي ارتقوا إليها تواً بين الروحانيين الذين هم فراشاتها.

إن الأصل في الخلوة هو الانتظار متهيئاً لتوجه منه سبحانه، ليل نهار، دون أن ترتد عين القلب نحو الأغيار قطعاً. هذا الانتظار في الوقت نفسه ليس أمراً سلبياً قط، بل هو انتظار ذو تمكين، يمضي مع آداب الخلوة مع الله وعيون القلب متفتحة بانفعال وحرص لئلا تفوتها الواردات التي تسيل إلى القلب.

وكم هو جميل ما قاله "حسين أفندي اللامكاني":

طهّر عين القلب حتى يتصفى
حدّق إليه حتى يتفجر ينبوعا
دع الإنكار، ألزم خابية القلب تحت تلك العين
لتمتلئ بالماء الباعث على الصفاء
انسلّ من البين ودع بيته لصاحبه
ولينـــزلنّ الله إلى بيته ما إنْ تغادره
ولا تدع للشياطين موجا
فطردهم يتعسر من بعدُ

ومعلوم أن الله سبحانه منـــزّه عن الزمان والمكان، ولكن معاملاته مـــع الإنسان تجري دائماً على سفوح القلب. وعليه لا بد أن تكون تلال القلب الزمردية مستعدة دائماً لاستقبال أمواج التجليات الآتية منه تعالى. وقد عبّر عن ذلك "إبراهيم حقي" قائلاً:

"القلب بيت الله طهّره مما سواه
لينـــزل الرحمن في الليالي على قصره"

وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام:
"يا داود، إني حرمت على القلوب أن يدخلها حبي وحب غيري معاً".[1]

---

١) الرسالة للقشيري ٤٨٩.

أي: أفرغ لي ذلك البيت كي أكون هناك. وقد فهم البعض أن الإفراغ هو تطهير القلب وتصفيته من التفكير في الأغيار وإبعاده عن الملاحظات الغريبة، ومن العلائق التي لا تذكّر بالله ولا طائل من ورائها. فكلام جميل لمولانا الرومي يكون ضياءً لأفق تفكيرنا:

قعرْ چِه بَگُزِيد هَركِه عَاقِلَسْت   زَانكِه دَر خَلْوَتْ صَفَاهَاي دِلَست

ظُلْمَت چِه بِهْ كِه ظُلْمتهَايِ خَلَق   سَر نَبَردْ آن كَس كِه گِيرَد پَاي خَلْق[1]

خَلْوَت اَزْ اَغْيَار بَايَد نَه زِيَار   پُوسْتِين بَهرِ دَيْ آمد نَه بَهَار[2]

أي: كل مَن كان عاقلاً اختار قاع البئر، ذلك لأن صفاء القلب في الخلوة. إن ظلمة البئر الدامسة خير من ظلمات الخلق، فما أفلح قط مَن اقتفى أثر الخلق. أي لم يصل النهاية ولم يطلع على السر. والخلوة دون الأغيار واجبة، لا دون المولى، فالفراء يُرتدى في أثناء الشتاء وليس إبان الربيع.

ولما كان المراد من الخلوة تطهير بيت القلب من الأغيار، والبقاء مع المولى دائماً. فإن أصحاب الأرواح التي هي بين الخَلق والموصولة مع الحق سبحانه، وكذا أرباب القلوب التي تراقب التوحيد باستمرار حتى في أقصى نقاط الكثرة، يعدّون هم في الخلوة دوماً. بينما الذي قضى عمره في الخلوة وعجز عن تطهير قلبه من الأغيار وقلعِ ما سواه تعالى منه ورميِه، فخلوته انخداع وهباء.

---

١) مثنوي معنوي لمولانا جلال الدين (فارسي) ج١/ص٦٦/ب١٢٩٨-١٢٩٩.

٢) مثنوي معنوي لمولانا جلال الدين (فارسي) ج٢/ص١٨٣/ب٢٥.

وفي الحقيقة ليس في الخلوة الماورائية تجرّد عن الخلق واعتزالهم، وحسب تعبير مولانا الرومي؛ إن الإنسان في مثل هذه الخلوة كالفرجال، إحدى ساقيه في أُفق اللاهوت والأخرى في قطب الناسوت، يعيش في كل آن عروجاً ونزولاً آخر معاً. وهذه هي الخلوة المعروفة لدى الأنبياء والأصفياء.

وقد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام. فقال: يا داود مالي أراك منتبذاً وحيداً ؟ قال: إلهي قليتُ الخَلق من أجلك. فقال: يا داود كن يقظاناً وارتدِ لنفسك أخداناً وكل خدن لا يوافقك على مسرتي فلا تصاحبه.[1] أي لما كان هدفك نحن وعزمك في مقرنا فلا تفتح قلبك لغيرنا.

اللّهم اجعل سريرتنا خيراً من علانيتنا وأحسِن علانيتنا،
وصلّ وسلّم على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ذوي الصدق والإحسان.

---

١) إحياء علوم الدين للغزالي ٢ / ١٦٠.

الحال والمقام

الحال: هو عيش الإنسان في أعماق ذاته بنفحات ترد من عالم الغيوب، واستشعاره بتمايزات الليل والنهار والصباح والمساء التي تجري في أفق القلب. فالذين فهموا "الحال" بما يحيط بقلب الإنسان، من طرب أو حزن أو بسط أو قبض، من غير جهد وسعي منهم، عبّروا عن دوامه واستقراره بـ"المقام"، وعن زواله وذهابه بـ"النفسانية".

وعلى هذا الأساس يمكن أن يُطلق على "الحال" أنه هبة إلهية، ونفحات الأنس في ربوع القلب. وعلى "المقام" أنه بلوغ الإنسان فطرة ثانية، باستنشاقه هذه النفحات بإرادته وعزمه حتى يملّكها ذاتَه.

و"الحال"؛ يشير إلى مصدر كل شيء دون ستار وحجاب، كما هو في الخلق والحياة والنور والرحمة، ويذكّر بالتوحيد الخالص، إذ يسوق الإنسان باستمرار إلى أن يكون في شدّ روحي وفي تحريات بديلة. بينما "المقام" يقرر ما يقرر ضمن منشور بلوري مثقل بضباب الجهد ودخان السعي، فيربط الحقيقة بعرش كمالاته. ولهذا فالشعور والحدس بالواردات التي ترد على القلب، وشقّ طريق صائب آخر كل لحظة، إلى مَن عُرف في القلوب بـ"كنتُ كنزاً" يُعَدّ طوراً أكثر إكراماً من واردات فيها شيء من حظوظ تعريف أنفسنا والتعبير

حسب لوننا. ولأجل هذا فقد قال سيدنا الصادق المصدوق ﷺ: (إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلا إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ)[1] مذكّراً بما هو المهم لدى الحق سبحانه، وطالباً توجيه المرآة إلى التجلي، حيث المحراب الذي ينبغي التوجه إليه.

وفي رواية أخرى ذكر الأعمال مع القلوب فقال (إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ)[2] تكرمة وتفضلاً للمقام، لأجل دوام الحال الموصل إليه.

"الحال" هو التجليات التي ترد تترى في أوقات موافقة لمراد الإرادة الإلهية المطلقة.. ومجال انتشار هذه التجليات أفق القلب.. والشعور والحس يقتنصانها ويفرغانها في قالب. ومن أجل هذا فـ"المقام" الذي هو مرتبة قد سكنتْ موجاتُه واستقرت، يقابله "الحال" الذي هو في شبكة التأرجح بين المدّ والجزر والمرتبط بالمقدرات العالية، فكل ظهور وورود يأتي في إطار آخر يختلف عمّا قبله، يظهر ويختفي باستمرار كالحزم الضوئية المختلفة في الأطوال والألوان الآتية من الشمس.

فالأرواح والمشاعر المتنبهة للمعرفة الإلهية، ترى تموجات "الحال" على ربوع القلب، مثلما ترى انعكاسات الشمس على حبابات الماء، تراها وتتحسسها وتقابلها بإدراكات مختلفة متنوعة. فالذين لم تُنظّم قلوبُهم تنظيماً بمعيار دقيق وظلت أرواحُهم منقطعة عن عوالمها، ربما يعدّون هذه الأمور

---

١) مسلم، البر ٣٣.

٢) مسلم، البر ٣٤؛ ابن ماجة، الزهد ٩، المسند للامام أحمد ٢/٢٨٥، ٥٣٩.

أوهاماً وخيالات، في حين أنها أحق الحقائق وأجلى الظواهر لـــدى الـــذين ينظرون إلى الوجود بنور الحق المبين.

ولما كان أعظم من حظي بـــ"الحال" ﷺ يرى سابق حاله دون حاضره -زيّن الله قلوبنا بنور ذلك الحال الأوطأ- فإنه كـــان يقـــول: (وَاللهِ إِنِّـــي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً).[1]

أجل، لا يمكن أن يفكر ذلك القلب الطاهر المطهَّر غير هذا التفكير في سفرته الأبدية المتوجهة إلى اللامتناهي وشعوره بالحاجة إلى النور الأبـــدي والبراق الأبدي.

اللّهم يا محوّل الحول والأحوال حوّل حالنا إلى أحسن الحال،
وصلّ وسلّم يا ربّ على سيدنا محمد المختار وآله وصحبه الأخيار.

---

١) البخاري، الدعوات ٣؛ الترمذي، تفسير سورة محمد؛ ابن ماجة، الأدب ٥٧.

القلب

"القلب بيت الله طهّره مما ســـــواه
لينـــزل الرحمن في الليالي على قصره"
إبراهيم حقي

القلب هو القلب المعروف أو الفؤاد، ويستعمل بمعنيين اثنين:

الأول: هو العضو الحيوي الجليل، المودَع في الجانب الأيسر من الصدر، تحت الثدي الأيسر، الشبيه بالمخروط الصنوبري. يتميّز عن جميـــع مـــا في الجسد من الأعضاء، في تركيبه ونسيجه، حيث يحتوي على أذينين وبطينين خارقين. ولكونه مركزاً لجميع المشاعر والأحاسيس، ومرجعاً لجميع العروق والأعصاب، ومتحركاً بذاته بخلاف الأعضاء الأخرى، فهو عضو حيـــوي جداً، إذ يتحرك كالمحرك الآلي، في فعالية شبيهة بالمضخة الماصة الكابسة.

أما الثاني: فهو نظير الأول، ومثيله، وبُعدُه الملكوتي، وهو مركز الـــشعور والإدراك، والتحسس، والعقل، وقوة الإرادة. وهو لطيفة روحانيـــة يـــسميها المتصوفون: "الحقيقة الإنسانية" والفلاسفة: "النفس الناطقة". وحقيقة الإنـــسان هو هذا القلب، ويطلق على الإنسان، بهذا البُعـــد المعنـــوي، اســـم "العـــالم" و"العارف" و"المدرك". والروح أساس هذه اللطيفة وباطنـــها، أمـــا الـــروح البيولوجية فمَرْكبُها. هذه اللطيفة هي موضع خطاب الله والمطالَبـــة بتحمـــل

المسؤولية، وهي المعاقَبة والمكافأة كذلك، وهي المتعالية بالهداية والمتردية بالضلالة، فتصبح عزيزةً أو تبدو مهانةً، وهي "المرآة المجلوّة" للمعرفة الإلهية.

القلب له خاصية المدرِك والمدرَك، وبوساطته يدخل الإنسان إلى روحه وجسمه وعقله، فالقلب بمثابة عين الروح، والبصيرة نظرُه حسب دنياه، والعقل روحه، والإرادة فاعليته الداخلية.

وعندما نقول "الفؤاد" بصورة عامة نقصد به هذا القلب الثاني. – وبغض النظر عن الفرق بينهما وعن التعبير عن أحدهما بدلاً عن الآخر مجازاً– إن هذه اللطيفة الروحانية وثيقة الارتباط بالقلب الجسماني. أما كيفية هذه العلاقة فقد شغلت كثيراً الفلاسفة وحكماء الإسلام منذ القدم. وسواء أكانت هذه العلاقة علاقة مباشرة، أم بالواسطة، أم بفعالية القلب، أم مرتبطة بقابليته، فإن ما نحمله في صدرنا من القلب الظاهري وهو اللحم الصنوبري الشكل، واللطيفة الربانية التي هي رمز إنسانية الإنسان ومنبع حياة جميع مشاعره، هما بلا شك وجهان لحقيقة واحدة، فهما متداخلان منـدمجان. ولكن كيفية هذه العلاقة والارتباط يعتريها شيء من الضبابية والغموض كما هي في القلب والروح والعقل والإدراك.

وهذا المعنى الثاني هو المراد على الأغلب حيثما جاء "القلب" في القرآن الكريم والعلوم الدينية والأخلاق والآداب والتصوف، كما هو المقصود في أهداف القلب الحقيقية وعلته الغائية التي هي الإيمان ومعرفة الله ومحبة الله والذوق الروحاني.

القلب، جوهر نوراني عجيب، ذو جهتين، ينظر بالأولى إلى عالم الأرواح

دائماً، وبالأخرى إلى عالم الأجسام. فإن كان الجسم قد انقاد لأمر الروح ضمن الأوامر الشرعية الموحّدة، فالقلب يحمل الفيوضات التي أخذها بوساطة عالم الأرواح إلى البدن والجسم، فيثير فيه نسائم السكينة والاطمئنان.

القلب، موضع نظر الله سبحانه كما عبرّ عنه القدماء. بمعنى أن الله سبحانه ينظر إلى قلب الإنسان ويجري معاملته معه وفق قلبه كما جاء في الحديث الشريف "...وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ "[1] ذلك لأن القلب كالقلعة الحصينة لكثير من المزايا الحياتية للإنسان كالعقل والمعرفة والعلم والنية والإيمان والحكمة والقربة، فإن كان القلب حياً قائماً، فهذه المشاعر تكون حية أيضاً، وإن خرب واهدّ ببعض المهلكات تعسّر دوام حياتية هذه اللطائف الإنسانية. وقد لفت الصادق المصدوق ﷺ الأنظار إلى مكانة القلب في جسم الإنسان وأهميته بقوله: (أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ).[2]

والجانب الأهم من هذا هو دلالة القلب إلى الحق تعالى بما في ماهيته من نقطتي الاستناد والاستمداد، وذلك بما يورد على وجدان الإنسان دوماً ما يعرّفه ويوضّحه كتابُ الوجود مفصلاً، بلسان الحاجة والاستجابة، حتى يُلفت الأنظار لهذا البُعد اللاهوتي للقلب بكلام طيّب يُروى كحديث شريف،[3] وعبّر عنه إبراهيم حقي نظماً بالآتي:

---

١) مسلم، البر ٣٤.

٢) البخاري، الإيمان ٣٩؛ مسلم، المساقاة ١٠٧.

٣) انظر: كشف الخفاء للعجلوني ٢/٢٥٥؛ وإلى معنى قريب للعبارة في مسند الشاميين للطبراني ٢/١٩.

"قال الحق: لا يسعني السماء والأرض
منجَمُ القلب عرفه (كنـــزاً)".

ولما كان للقلب مثل هذا اللسان الفصيح، المجلّى، الصادق الذي لا يكـــذب قطعاً، عُدّ ملكوتاً لمُلك الإنسان، ونُظر إليه أنه أشرف من الكعبة، وغدا الخطيب الفريد في بيان الحقيقة الإلهية السامية التي تعبّر عنها الأكوان قاطبة.

القلب، كالقلعة الحصينة لصحة الفكر واستقامته وصحة التصور ووضوحه وصحة الروح ونقائها، بل حتى لصحة البدن وسلامته. فمشاعر الإنسان المادية والمعنوية تحتمي بهذه القلعة وتُصان بها. لذا فالقلب الذي يحوز هذه الأهمية لا بد له من موضع مراقبة وحَجْر صحي ومنتجع. ذلك لأنه لطيفـــة عـــسير جـــداً ضمادها إذا جُرحت بل أعسر منه إحياؤها إذا ماتت. لذا يوصينا القرآن الكريم بهذا الدعاء: ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ (آل عمران: ٨) والرسول الأكرم ﷺ يذكّرنا بهذا الحَجر الصحي والحماية حيث يدعو مراراً صباح مساء متضرعاً إلى الله تعالى: (يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ).[1]

نعم، القلب يؤدي وظيفة جسر مهم في بلوغ جميع الخيرات والبركـــات إلى الإنسان، كما يمكن أن يكون وسيلة خطرة تسمح لجميع النـــــزغات الشيطانية والخواطر النفسانية. وكلما أمكن توجيه القلب إلى الحق ســـبحانه أصبح مصباحاً منيراً ينير أجزاء الجسد كله بجميع زواياه، بينما لو وجّـــه إلى الجسمانية فإنه يصبح هدفاً لسهام الشيطان المسمومة.

القلب هو الوطن الأصلي لروح الإيمان والعبادة والإحسان، وموضع حلّه

---

١) الترمذي، القدر ٧، الدعوات ٩؛ المسند للامام أحمد ٦/٣٠٢.

دائماً. وعلى الرغم من أنه كالنهر الجاري تسيل فيه المشاعر الدقيقة الرقيقة بين الله والكون والإنسان، فإن لهذه اللطيفة النادرة أعداء لا يحصون، يسعَون لزحزحتها وتغيير مجرى هذا النهر وتحويله. فمن القساوة إلى الكفر، ومن العُجب إلى الكبر، ومن طول الأمل إلى الحرص، ومن الشهوة إلى الغفلة، ومن المنفعة إلى الولَه بالجاه... كلها أعداء متراكمة متراكبة متأهبة للانقضاض عليها باغتنام فرص ضعفها وإتيانها من ثغراتها.

* * *

الإيمان روح القلب وحياته، والعبادة دمه الجاري في عروقه، أما التفكر والمراقبة والمحاسبة فأُسس بقائه. والقلب في مَن لا إيمان له ميت، موصد الأبواب في وجه الغيوب.. وفي المحروم من العبادة، فهو في شراك الموت يكابد أمراضا لا رجاء منها.. أما إن كان فيمن يفتقر إلى التفكر والمحاسبة والمراقبة فمتعرض لشتى أنواع المهالك والمخاطر، ولا أمان له.

فالذين ينضمون إلى القسم الأول لا يملكون قلوباً رغم ما يحملون في صدورهم من عضلة ضاخة كابسة.. والذين هم في القسم الثاني يعيشون في عالم أوهامهم الضبابية بين البقاء والعدم، فهم أُسراء المسافة لا يستطيعون تجاوزها ولا يبلغون الهدف.. أما الذين هم في القسم الثالث، فقد قطعوا مسافات شاسعة، واجتازوا عقبات كثيرة، ولكن لعجزهم عن بلوغ الذروة، يُعدّون كل حين أنهم على شفا جرف؛ فيمشون تارة ويقعون أخرى، ويمضون مسابقتهم متقدمين مرة متأخرين أخرى، وهكذا يقضون أعمارهم على مرتفع كؤود لا يمكن تجاوزه.

أما الذين آمنوا، وعاشوا بإيمانهم ونصبوا أخبيتهم على سهول الإحسان، فهم في قمة الأمان ضمن دائرة الأسباب، وفي حفظ واطمئنان من حيث الحماية الإلهية، يتملّون الوجود بالبصيرة، فيطّلعون على ما وراء الأشياء بنور الله، فهم في حذر دائم، يعيشون وقلوبهم وجِلةٌ وَجَل قلب الحمام، بحثاً عن رضاه سبحانه في كل مكان، ينظّمون أعمالهم وفق مرضاته، يُصبحون بمحبة الله ويمسون بها. فيحبهم الله سبحانه ويحببهم للقلوب المؤمنة. وإذا بهم يصبحون "مقبول الإنس والجان" ويُستقبلون بإحسان وترحاب ورضى في كل مكان.

إن سيدنا يوسف "الصدّيق"، الذي أُطلق اسمه الطيب على السورة الجليلة، يوصَف فيها خمس مرات بوصف "المحسنين". وهذا يعني أن كل شيء؛ الأرض والسماء، الأولياء والأعداء، الخالق والمخلوق، الجميع يشهدون على ما كان عليه من يقين ومحاسبة ومراقبة.

يُلفت الله سبحانه النظر إلى تحسسه بمعاني الإحسان ولّما كان في ميعة الصبا والشباب وبرعماً لم يتفتح بعدُ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف:٢٢).. ولما أحسّ أهلُ السجن من أشقياء وسعداء، عمق أُفق تفكيره ودقته وصفائه ولدنّيته، اتخذوه مرجعاً لأمورهم، فهرعوا إليه يصدّقونه، ويؤمنون به، ويرتبطون به، قائلين: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف:٣٦)، وهكذا عرضوا عليه مشكلاتهم... فهذا الشاب النبيل حقاً، الذي اجتاز الامتحانات كلها بتفوق ونجاح، واستولى حبّه على القلوب، أعداءً وأولياءً، ولم تتغير أطواره أمام مفاتن الدنيا، يثني عليه الله سبحانه مرة أخرى بقوله: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ

الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف:٥٦) مذكّراً كفالته الإلهية له.. أما إخوته الذين كانوا – إلى ذلك اليوم– يغارون منه، ما أن تمكنوا من الانسلاخ من جو الحسد والانخلاع منه حتى قالوا: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف:٧٨) اعترافاً منهم بصدقه معتذرين منه ولو ضمناً.

وهكذا لمّا بلغ أشُدّه، وحاز الاطمئنان، يشهد هو لنفسه، تحدثاً بنعمة الله وفضله عليه، بما حظي من الألطاف الإلهية، مع هذه الكثرة من الشهود قائلاً: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف:٩٠).

فهذا القلب الذي يشهد له الجميع قاطبة بحسن الشهادة، لا احتمال لانحرافه بتقلبات الحياة بمقتضى العادات الإلهية، كما لا احتمال لمحروميته. فمثل القلب في الإنسان كمثل العرش في الأكوان. فهو مرآة مجلوّة تحت نظر الله كل حين لا تُطرح ولا تُلقى كأي جسم تافه، بل هو روح حقيقة الإنسان وموضع ثناء الله سبحانه ونظره.

يقول جلال الدين الرومي مذكّرا بهذه الحقيقة:

حَق هَمِي گُويَد نَظَر مَانْ بَر دِلَسْت
نِيست بَر صُورَت كِه آن آب و گِلَسْت
تُوهَمى گُويي مَرَا دِل نِيزهَسْت
دِل فَرازِ عَرشْ بَاشَد نِي بَسْت[1]

يعني: يقول الحق سبحانه: نظَرُنا إلى القلب، وليس إلى الصورة التي هي

١) مثنوي معنوي لمولانا جلال الدين (فارسي) ج٣/ص٤٢٩/ب٢٢٤٤-٢٢٤٥.

من ماء وطين. وأما إذا قلت: إنني أملك قلباً، فاعلم أن الفـــؤاد في أعـــالي العرش وليس في الأسافل.[1]

رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ.

اللّهم يا مقلّب القلوب ثبّت قلوبنا على دينك،

وصلّ وسلم على سيدنا محمد محبوب القلوب وعلى آله وصحبه.

١) أي أن المسافة بين هذا الإدعاء ووجود القلب حقيقةً هي المسافة بين الانجذاب إلى الأرض والارتفـــاع إلى العرش.